



تراجیدیا کربلاء مدخل سوسیولوجی إلى فهم الخطاب الشيعی

پدیدآورده (ها) : الطایبی، سرمد

میان رشته ای :: المنهاج :: تابستان 1381 - شماره 26

از 179 تا 190

آدرس ثابت : <http://www.noormags.ir/view/fa/articlepage/209124>

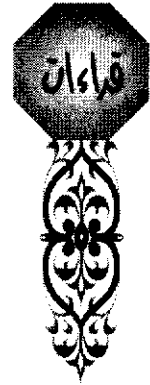
دانلود شده توسط : رسول جعفریان

تاریخ دانلود : 14/04/1395

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی (نور) جهت ارائه مجلات عرضه شده در پایگاه، مجوز لازم را از صاحبان مجلات، دریافت نموده است، بر این اساس همه حقوق مادی برآمده از ورود اطلاعات مقالات، مجلات و تألیفات موجود در پایگاه، متعلق به "مرکز نور" می باشد. بنابر این، هرگونه نشر و عرضه مقالات در قالب نوشتار و تصویر به صورت کاغذی و مانند آن، یا به صورت دیجیتالی که حاصل و بر گرفته از این پایگاه باشد، نیازمند کسب مجوز لازم، از صاحبان مجلات و مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی (نور) می باشد و تخلف از آن موجب پیگرد قانونی است. به منظور کسب اطلاعات بیشتر به صفحه **قوانین و مقررات** استفاده از پایگاه مجلات تخصصی نور مراجعه فرمائید.



پایگاه مجلات تخصصی نور



تراجيديا كربلاء، مدخل سوسيولوجي إلى فهم الخطاب الشيعي

1. سرمد الطائي*

التراجيديا

تمثل التراجيديا مسرحية شعرية، أو نثرية، تعالج موضوعاً جدياً، أو مقدساً، وتصور صراعاً بين البطل وقوةً عليا أقوى منه، كالقدر أو المجتمع أو الظروف، ينتهي آخر الأمر نهايةً فاجعةً تثير الإشفاق أو الرعب. ونلاحظ في التراجيديا الكلاسيكية أن البطل عادةً ما يكون ملكاً أو أميراً أو نبياً، وتذكر بعض المعاجم أنه ربما أطلق المصطلح على الأعمال الأدبية غير المسرحية، كبعض الروايات التي تشبه التراجيديا موضوعاً ومضاعفات وخاتمة.

نشأت التراجيديا مع ظهور المسرح اليوناني، إذ يعدّ تيسيس، وهو شاعر يوناني من أهل القرن السادس قبل الميلاد، مخترع التراجيديا الإغريقية. في حين يعدّ إسخيولوس وسوفوكليس ويوريبيدس أعظم التراجيدين الإغريق.

ولا شك في أن التراجيديا إنعكاس لصرخة الإنسان وعويله في مسارات التاريخ وآفاته، يختلط فيها الجانب الإنساني بالإلهي وحاكمة القدر بفاعلية الإنسان. بل يمكن القول، في ضوء ذلك: إن التراجيديا مشهد مهم يؤدي غيابه إلى نقص فادح في الصورة التاريخية؛ إذ إن التراجيديا تتولى تجسيد حقائق مهمة ربما غيّبتها السلطة ومؤسساتها الدعائية، إذ ثمة صرخات عالية في النص التراجيدي لا

* كاتب من العراق

يمكن كتمها أو محوها من الذاكرة التاريخية، مهما كانت تعاني من ضعف في الاسترجاع وسرعة في النسيان.

الكتاب

ثمة العديد من النماذج التي تصلح لأن تتحوّل إلى تراجيديا، لكن القليل منها هو الذي تتوافر ظروف مناسبة لتحويله إلى ذلك، والأمر يرتبط بعناصر واضحة ومهمة وبحجم الإثارة التي ينطوي عليها النموذج.

يستعرض الكتاب^(١) نصّاً تراجيدياً هو الأبرز في التراث الإسلامي الزاخر كغيره بالمشاهد التراجيدية، فيتناول موضوع كربلاء نصّاً تاريخياً وطقوساً وفلكلوراً ومضامين شعبية واجتماعية. والكتاب مشروع يهدف إلى دراسة هذه الشعائر الدينية، بعامة، ومراسم العزاء الحسيني بخاصة، باعتبارها ظاهرة دينية اجتماعية تشكل خطاباً خاصاً بعاشوراء يساعدنا على فهم الخطاب الشيعي، أو يمثل مدخلاً إلى استيعاب هذا الخطاب وتحليله.

والكتاب تطوير لدراسة انثروبولوجية - ميدانية للعزاء الحسيني قام بها المؤلف، عام ١٩٦٨م، في مدينة الكاظمية وغيرها، واستغرقت ستة شهور. وقد جمع الباحث خلال ذلك عدداً كبيراً من المعلومات الانثوغرافية ونحوها، من الوثائق والنصوص الشعرية والقصص والأساطير... الخ، ما يشكل أرشيفاً للفلكلور الشعبي والديني. كما عزز ذلك بدراسة ميدانية أخرى خارج العراق، أنجزها عام ١٩٧٥ في بلدة النبطية - جنوب لبنان.

في ضوء طبيعة الموضوع الخاصة، لا يخفي المؤلف شعوره بأن الخوض فيه ينطوي على لون من المخاطرة، إذ لا شك في أن تناول الطقوس والشعائر هذه بالنقد والتحليل والتقييم سيثير ردود فعل غاضبة من قبل أولئك الذين نشأوا على تلك التقاليد وتلقّوها من دون تفكير من جهة، إضافة إلى تلقي ذلك بردود فعل حماسية وغير عقلانية من جهة ثانية، فيما لا تعبر عن أي اعتراف بالرأي الآخر واحترامه من جهة ثالثة. لا سيما لو افترن ذلك بالاعتقاد بأن كل نقد يوجه إلى تلك الطقوس هو مساس بالعقيدة نفسها.

● تراجيديا كربلاء مدخل سوسيولوجي إلى فهم الخطاب الشيعي

لا يستغرق إبراهيم الحيدري كثيراً في الشكوى، بل يقرّر أنّه من الضروري، ونحن في زمن المحنة والعجز، أن نقف أمام المرأة لتأمل الذات بمنظار نقدي يشمل أبعاداً متعددة، بغية التعرف إلى ما نعانیه من عناصر انكسار من عدم وعي بواقعنا البائس، وبالتالي كي ننظر إلى المستقبل بتفاؤل.

يعتقد المؤلّف أن مراسم العزاء الحسيني هي من أهم الموروثات الشعبية في العراق، كما أنها ليست ظواهر دينية - شعائرية فحسب، بل هي، أيضاً، ظواهر اجتماعية سياسية وفلكلورية شعبية تتمتع بخصوصية وفردة في العالم الإسلامي.

كما أن ظاهرة العزاء الحسيني هي نتاج ظروف تاريخية وتناقضات اجتماعية سياسية عميقة الجذور في المجتمع العراقي، ارتبطت بتراجيديا كربلاء من جهة وبالهموم والآلام التي يعانيتها الفرد العراقي من جهة أخرى. الأمر الذي حوّل هذه المراسم تدريجياً إلى وسيلة للتنفيس يجد فيها هذا الفرد، المثقل بالهموم والأزمات، عزاء وسلوى. وهنا تكمن إحدى إمكانات التماثل والتعويض.

مهرجان الحزن: دلالات وآليات

تنطوي الشعائر على رموز ودلالات خاصة بها سواء كانت دينية أم وضعية، فهي لا تقتصر على الدّين بل تتعدّاه إلى المنظومات الاجتماعية الأخرى. وتنطوي تحت الشعائر جميع المراسم التي تعبر عن نوع من الأنماط السلوكية التي تفرضها القيم والتقاليد الاجتماعية التي تؤدي دوراً مهماً في نشاطات الإنسان جميعها. وهي تهدف إلى ضبط تتابع بعض السلوكات، أو الحركات، أو الأقوال الموجهة لتحقيق غاية معينة. ويؤكد المؤلّف أن للشعائر أهمية خاصة في المعتقد الديني، لأن معانيها وأهدافها ترتبط بالإجراءات الدينية. كما لا ينفصل أداء أغلب الطقوس عما هو مقدس، وهو الحافظ المسيطر على معظم الشعائر، فهي إحياء لتجربة مقدّسة والتقرب بوساطتها إلى عالم مقدّس بهدف إعادة التوازن إلى الإنسان الحائر، بما يعانیه من قلق وتوتر، فالطقوس بحسب علم النفس الاجتماعي طرائق للدفاع يلجأ إليها الإنسان ليتقي المحرم، أو يأتي بطقس بديل عنه يعتقد أن فيه تعويضاً عما اقترفه

من ذنوب، وبهذا تصبح الطقوس هذه أداة لتطهير النفس من تلك التهديدات الوجودية. والمؤلف يعتمد في تحليله هذا على انثروبولوجيا الثقافة التي تفترض أن العمليات التي يتم فيها تناول الطقوس تمتلك وظيفة مزدوجة، فهي أولاً تعيد تنشيط التصورات الدينية، وهي، ثانياً، تغذي الإحساس بالعودة إلى الجذور الأصلية.

في ضوء ذلك، يستوحي الحيدري وظيفة اجتماعية نفسية تقوم بها الشعائر؛ حيث تتحول إلى بدائل تعويضية تتبناها الجماعات المغلوبة على أمرها، كما أشار علماء الانثروبولوجيا الذين أخضعوا للدراسة عدداً من الشعوب التي تعرضت إلى الاستعمار الأوروبي.

ثمة مساحة واسعة (٨٠ صفحة) يخصصها المؤلف للجانب الوصفي من بحثه الموسع، إذ يأخذ في ممارسة وصف دقيق لا يستغني عن التفاصيل، فيسلط الضوء على شكل العزاء الحسيني وطقوسه المختلفة في العراق بشكل خاص، إضافة إلى بعض البلدان الإسلامية الأخرى كإيران ولبنان ومصر. كما يفرد هامشاً لتسجيل جملة من الملاحظات ينتقد فيها جانباً من الطقوس الشعبية تتقاطع مع روح الإسلام وتتجاوز حدود تعاليمه.

طقوس العزاء: عوامل التكوين والتطور

يرصد الباحث تحولات طالت طقوس العزاء الحسيني خلال العقدين السادس والسابع من القرن الماضي، إذ اقتصرت مراسم العزاء حتى الحرب العالمية الثانية على إقامة مجالس التعزية خلال شهري محرم وصفر ويوم الأربعين في كربلاء، مع عدد قليل من المواكب ومسيراتها المحدودة. وهكذا لم تكن المواكب الحسينية قد اكتسبت هذه الأهمية والقوة، ولم تأخذ هذا الطابع الاجتماعي - السياسي الشعبي إلا بعد أن تزايدت حدة التوترات الاجتماعية، وتعمق الوعي الديني إلى جانب الشعور بالتمايز الطائفي الذي ظهر بوضوح في الدائرة السياسية.

يحاول المؤلف، من خلال مقارنته بين طقوس العزاء، قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها، أن يفترض أن ثمة علاقة وثيقة بين تنامي مراسم العزاء من جهة

● تراجيديا كربلاء مدخل سوسيولوجي إلى فهم الخطاب الشيعي

والصعوبات والتحوُّلات التي طرأت بعد الحرب العالمية الثانية اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، مشيراً بشكل خاص إلى موجات الهجرة الواسعة من الريف إلى المدن الكبرى في العراق، منطلقة من أهوار الجنوب ومناطق شرقي دجلة التي لا تزال تعيش وفق أسلوب إنتاج زراعي - بدوي (رعوي).

تخضع ظاهرة الهجرة إلى طبيعة العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العراق، وهو ما دفع الكاتب إلى دراسة ذلك محاولاً تسليط الضوء على تأثيره في تطور طقوس العزاء. إذ يلاحظ أن مجمل تلك الظروف أدت إلى أن يعاني الفلاح العراقي ألوان البؤس والحرمان، بعد أن انتهى إلى مصير بائس في المدينة، الأمر الذي نجد له انعكاساً في مستويات مختلفة، منها الشعر الشعبي وزيارة العتبات المقدسة، والأهم من ذلك أثره الذي انعكس على المشاركة في الشعائر والطقوس الدينية.

هذا ما يتَّصل بسكان الريف وهجرتهم، غير أن ثمة تحوُّلاً آخر طال حياة القبائل والبدو، فتم التحوُّل من نمط الإنتاج البدوي الرعوي القائم على التنقل والترحال وراء العشب والمطر، إلى نمط الإنتاج الحضري القائم على الاستقرار والزراعة والارتباط بعلاقات اقتصادية واجتماعية جديدة. إن هذا التحول لعب دوراً مهماً في تغيير نمط حياة القبائل وطريقتهم في العمل والتفكير، وكذلك في ما يتصل بقيمتهم وعاداتهم دينياً واجتماعياً.

يستعين المؤلف، في تفسير هذا اللون من التأثير والتأثير، بمعطيات علمي الاجتماع والانثروبولوجيا، إذ تفيد الحقيقة الاجتماعية أن البدو لا يميلون كثيراً إلى ممارسة الشعائر والطقوس الدينية. فضلاً عن أن الالتزام بالصلاة والصيام والحج ونحوه من الشعائر يبدو ضعيفاً لدى البدو، كما تقرره مشاهدات فيليب حتي والألمانيين (أوبنهايمر) و(شتاين)، فإن المرء يلاحظ أنَّ البدو لا يؤمنون سوى بالله ورسوله. ومن الملاحظ أننا لا نجد في البوادي والصحراء جوامع ومساجد وقبور أولياء ورجال دين إلا نادراً.

وهنا يعتمد المؤلف إلى توظيف، ما قدمه كل من ابن خلدون وعلي الوردي، من تفسيرات معروفة، إذ يختلف الأمر مع سكان المدن الذين يميلون إلى طقوس

وشعائر تساعدهم على حل مشاكلهم، وتقدم لهم العزاء في محنتهم، وتبعث فيهم الثقة والأمل والتفاؤل. وهم يجدون ذلك في المؤسسات الدينية وشعائرها، وبصورة خاصة في العتبات المقدسة والأولياء والصالحين؛ حيث يقدمون صلواتهم وأدعيتهم طالبين الخير والبركة والشفاعة.

وهذا الفارق الذي يميز الحياة في البادية عنها في المدن والحواضر هو الذي يؤدي دوراً في تغيير قيم البدو حين يتحولون إلى النمط الزراعي، ويستوطنون القرى، ويعيشون تجربة الاستقرار، وهو ما انعكس في مجالات متعددة من الحياة الاجتماعية في العراق، ومنها طقوس العزاء الحسيني والدائرة الأكثر سعة التي اكتسبتها بعد الحرب العالمية الثانية.

سوسيولوجيا العزاء: الصلة بالأديان والحضارات الأخرى

يلفت الانتباه ما يجريه المؤلف من مقارنة بين شكل الطقوس هذه في إيران والموروث الفلكلوري الساساني الذي تركت أساطيره وملاحمه أثرها على النسخة الإيرانية من تراجيديا الإمام الحسين عليه السلام.

يتوقف المؤلف ثانية، وفي فصل آخر، كي يتناول ما سجله المستشرقون من مقارنة بين هذه الشعائر وبين الطقوس المسيحية. إذ يعتقد بعض المستشرقين أن ثمة مصدراً واحداً للشيعة والمتصوفة لا بد من أن نبحت عنه في الغنوصية المسيحية. ونجد أن عيد الفصح يشهد منذ العصور الوسطى دراما دينية تتحدث بطريقة مؤلمة عن آلام السيد المسيح في أثناء إلقاء القبض عليه ومحاكمته وتعذيبه. كما أنه من المعروف اقتران ذلك بمواكب الجمعة الحزينة التي ترفع فيها الصلبان والرايات والشعارات الدينية، حيث يقوم المحتلفون بتعذيب أنفسهم عن طريق جلد سيقانهم وأرجلهم بقضبان خشبية غليظة حتى تسيل الدماء منها، تعبيراً عن مواساتهم لآلام السيد المسيح. إضافة إلى تشابه كبير في ما يتصل بموضوع شفاعاة السيد المسيح والإمام الحسين، لدى النصاري والشيعة.

يستعرض المؤلف عينات من نصوص الرثاء التي نظمها شعراء عراقيون،

● تراجيديا كربلاء مدخل سوسيولوجي إلى فهم الخطاب الشيعي

ويلاحظ فيها حديثاً عن التشابه القائم بين الإمام الحسين والمسيح ﷺ، لكنه يعلق على ذلك قائلاً: «يبدو لنا مما مر أن التصور الشعبي الشيعي كان قد ربط بين الإمام الحسين والسيد المسيح، وفي مستويات عديدة، غير أن هذا الربط كما يبدو لم ينطلق من مراسيم عيد الفصح والجمعة الحزينة بقدر ما ارتبط برؤية الإسلام للسيد المسيح وقديسته».

تنتقل هذه المقارنات إلى ظاهرة البكاء، إذ إن طقوس الموت والحزن كانت معروفة تاريخياً في مجتمعات الشرق ودياناتها القديمة وبخاصة في بلاد ما بين النهرين، حيث تذكرنا تراويل البابليين ونواحهم على خرائب سومر وأكد ونواح عشتار على فقيدها تموز إله الربيع المقتول في سومر القديمة... بنواح زينب على الإمام الحسين ﷺ ولىلى على وليدها علي الأكبر. وثمة مقارنة أجراها المستشرق إيردمنس، في القرن التاسع عشر، بين طقوس العزاء الحسيني في إيران وما كان يقام من طقوس وشعائر في سومر وبابل. كما حاول بعض المستشرقين القول: إن من الممكن انتقال طقوس الحزن والبكاء من المسيحية إلى الإسلام.

غير أن المؤلف يتساءل حول فرضيات المستشرقين قائلاً: لماذا تأثر الإسلام بالمسيحية ولم يتأثر باليهودية التي أباحت طقوس البكاء أمام حائط المبكى؟

لكنه لا يرفض المقارنة بالميثولوجيا العراقية القديمة، بل يعتقد أن العلاقة الميثولوجية بين احتفالات تموز في بابل من جهة والاحتفال بيوم عاشوراء من جهة أخرى، من الممكن أن تشكل إمكانية للتشابه فكرياً وجدانياً تعبيراً عن انتصار الخير على قوى الشر، فنواح عشتار على حبيبها تموز سنة بعد أخرى إنما يمثل طاقة خلق وتجديد لمبدأ الأرض - الخصوبة - الحياة، مثل الاحتفال بذكرى عاشوراء الذي يمثل تجديداً وإحياء لمبادئ الإمام الحسين ﷺ في الرفض والشهادة. وحين يعتقد المؤلف أن التشابه القائم بين مواكب تموز في بابل القديمة ومواكب العزاء الحسيني، إنما يعبر عن افتراضات لا يمكن البرهنة عليها، فهو يرى في الوقت نفسه أنه ليس في وسعنا رفض تلك المعطيات والمؤشرات تماماً.

ثمة بعد آخر في سوسيولوجيا عاشوراء لا يغفله المؤلف، وهو مضامين الرفض

والاحتجاج التي تنطوي عليها طقوس العزاء. إذ طبع الخوف والقمع والاضطهاد تاريخ العراق بالحزن، ولوّنه بالأسى الذي لا يزال يجد تعبيره في مراسم العزاء باعتبارها وسيلة للرفض والمقاومة، وجسراً للتعبير عن الذات والدفاع عنها.

وذلك ما يظهر بصورة مباشرة، أو غير مباشرة، في كثير من المناسبات؛ حيث تتحول مواكب العزاء، وفي أحيان كثيرة، إلى فرص مناسبة لعرض حالة التذمر والسخط الخفية ونقد النظام القائم والأوضاع الاجتماعية السيئة. وغالباً ما يتم ذلك من خلال المقارنة بين استبداد رموز النظام السياسي باستبداد معاوية وابنه يزيد قاتل الإمام الحسين (عليه السلام).

ويذكر، في هذا السياق، أن مجالس العزاء أخذت، منذ أواخر الستينات، تطرح بوضوح بعض الشعارات السياسية وتتحول إلى تظاهرات شعبية، وقد كان السيد جواد شبر أول خطيب دعا إلى دعم حركات التحرر الوطني عربياً وإسلامياً وعالمياً، فربط بين ثورة الإمام الحسين (عليه السلام) والبطولات التي يقوم بها الفلسطينيون وحركات التحرر في الجزائر وفيتنام. فضلاً عن ظهور الشعر السياسي خلال أحداث مهمة كالثورة العراقية الكبرى عام ١٩٢٠.

وكان عالم الاجتماع الألماني المعروف ماكس فيبر قد أشار إلى أن القناعات الدينية للمضطهدين تعكس دوماً احتجاجاً ضمناً على مصيرهم الدنيوي، وبروحية هي أقرب إلى التعصب، وهي روحية نشأت عن اضطهادهم بحيث أنهم يأملون من خلال ذلك حصول تحول أو انقلاب يغيّر ظروفهم الاجتماعية.

الطقوس: خصائص فلكلورية

يتحدث المؤلف عن دور الفلكلور في حياة الجماعة الإنسانية مستعرضاً ما يقدمه علماء الاجتماع والبحث الأنثروبولوجي من مستويات تحليل إزاءها، وهو يحاول تسليط الضوء على الأبعاد الجمالية التي ينطوي عليها الفلكلور، ومنه طقوس العزاء الحسيني، بغية استخلاص ما يمتلكه من قيم جمالية.

غير أنه ينطلق من كون المواكب الحسينية، مثلاً، مسرح حياة شعبي يومي،

● تراجيديا كربلاء مدخل سوسيولوجي إلى فهم الخطاب الشيعي

في سجل في ضوء ذلك أن النظر إليها وطريقة إنتاجها وعرض أبعادها غالباً ما اتسم بالسطحية والسذاجة. ولذلك فهو يدعو إلى الرقي بها نحو مستوى فني متقدم تخرج به من إطارها الضيق لتتحول إلى مهرجانات خلق وإبداع، لا سيما أنها لا تتحدد بفكر جامد ولا يحق لأحد أن يحتكرها. وهو ما لا يتم إلا من خلال التخلص من العقد التاريخية والنظر إلى ثورة الإمام الحسين (عليه السلام)، بوصفها رمزاً إنسانياً عالمياً.

والحق أن المؤلف قد وضع يده هنا على الأزمة الحقيقية التي تعانيها طريقة تعاملنا مع الإمام الحسين (عليه السلام)، وثورته. إذ نجد أننا نتعامل معها على أساس قراءة «عتيقة» تكونت خلال مراحل تفشى فيها تخلف العقل وتدنت أدوات القراءة والعرض والتمثيل والاستيعاء، ولم يرق ذلك على أساس ذاتي مجرد، بل هو حصيلة موضوعية لعصور التردّي العام منذ القرن الثالث عشر الميلادي. ومع أن ثمة تحولاً قد طال مستوى الوعي وطريقة التفكير وتجديداً شمل أبعاد الملاحظة والأفق الذي يتم فيه إنتاج مقارباتنا بعامة، إلا أن طقوس الاحتفاء بالحسين ظلت تستدعي إرث عصور الظلام والتردّي من دون أن تتكامل لتنسجم مع ما بلغناه من مرحلة متباعدة للغاية مع الحقب الماضية.

وهذا ما ينتمي إلى إشكالية أوسع من دائرة الطقوس العاشورائي، فهي إشكالية جذرية تستغرق مجمل تعاملنا مع الموروث المعرفي والثقافي وما ارتبط به من قداسة انتقلت إليه خطأ من الموضوعات المقدسة التي تعامل معها. إذ لا مسوغ، مثلاً، لتقدّيس قراءة معينة لنصوص القرآن، رغم أنّه من الموضوعي القول بقداسة الوحي نفسه. وهكذا فلا مسوغ لتقدّيس شكل من أشكال الفلكلور الديني لأنه مجرد لون خاص من الاستيعاء الإنساني يمكن بالتأكيد أن يتغير فتقدم بدائل أكثر فاعلية له، ويظل موضوع الاستيعاء مصوناً لا مساس بقدسيته!

وفي ما يتصل بالموضوع نفسه، يخصص المؤلف فصلاً مستقلاً يتحدث فيه عن محاولات التشويه والاستغلال التي طالت العزاء الحسيني منطلقة من أغراض سياسية أو اجتماعية واقتصادية شتى. كما يستعرض عدداً من محاولات الإصلاح التي سعت إلى تجاوز العديد من الثغرات في الطقوس هذه.

حول منهج البحث

نلاحظ هدوءاً أكاديمياً يسود عرض المؤلف، إذ تغيب عنه حرارة الحماس الخطابى الذي يزاوج بين الايديولوجيا والمعرفة بنحو لا يبقى مساحة تتيح ظهور المعطيات العلمية، بل تستولي نصوص التعبئة والتجيش على نطاق البحث مقرونة بالإطلاقيات وروح الحسم والنهائية. وفي ضوء هذا يمتلك عمل المؤلف قدراً كبيراً من الموضوعية يذكرنا بكلمة لرضوان السيد يقول فيها: إنه تعلم من أساتذته الألمان هدوء البحث العلمي ونسيبة النتائج والحذر من الإطلاقيات التي لا تتوخى تكوين معطيات علمية بقدر ما تسعى إلى تكريس نمط من الحسم الايديولوجي.

كما تقوم الدراسة على وصف دقيق قائم على المعاشية وخوض التجربة المباشرة مع الموضوع، وهذا ما يعززه انتماء الباحث إلى البيئة الشيعية في بغداد والعراق بشكل عام.

وفي السياق نفسه حرص الباحث على الاستعانة بنصوص جملة من الرّحالة الغربيين ورجال الاستشراق والدبلوماسيين الأجانب، حيث نجد أن ملاحظاتهم التي تنبثق من دائرة معرفية وتاريخية وقيمية أخرى تعمل على إغناء جوانب الموضوع وتقدم له قراءة جديدة ذات طابع خاص، إضافة إلى عدد من النقاط التي علّق الباحث من خلالها على مشاهدات الغربيين واستنتاجاتهم.

وتمتاز الدراسة باعتمادها المباشر، في عملية التحليل السوسيولوجي، على النصوص الشعرية الفصحى والدارجة، إضافة إلى عدد من النصوص القصصية والروائية والمسرحية الحديثة ولوحات الفن التشكيلي كأعمال الفنان العراقي شاكر حسن آل سعيد؛ حيث يدرس الباحث الانعكاسات التراجيدية لعاشوراء في هذه الأعمال وما تفرزها من معطيات وإيحاءات اجتماعية وفنية وفلكلورية.

لقد لاحظنا أن هنالك إسرافاً في وصف أسباب الهجرة من الريف إلى المدينة، في سياق البحث عن عوامل تطور العزاء الحسيني. إذ استغرق الباحث كثيراً في وصف الوضع الزراعي وملكية الأراضي الزراعية وقوانين الإصلاح الزراعي وطبيعة

● تراجيديا كربلاء مدخل سوسيولوجي إلى فهم الخطاب الشيعي

الإنتاج والعلاقة بين الفلاح والإقطاعيين... الخ. وذلك بالنحو الذي نعتقد أنه أصبح على حساب جوانب أخرى من البحث أكثر أهمية، كمستويات التحليل الأكثر عمقاً وجرأة، والتي نلاحظها لدى غيره ممن قدموا معالجات للموضوع اعتمدت مناهج علم الاجتماع، مثل ما كتبه علي الوردي وعلي شريعتي وغيرهما. ونلاحظ استغراقاً مماثلاً في وصفه لطقوس العزاء نفسها؛ حيث خصص لها أكثر من ٨٠ صفحة.

ذكر المؤلف، في مقدمة كتابه، وعوداً بأن تستوعب دراسته جوانب اجتماعية - ابستمولوجية: «إن هذه الدراسة لا بد من أن تخضع لمنهجية اجتماعية - ابستمولوجية أيضاً... للتوصل إلى تحليل منطقي وجدلي...». ومما يكرس مطالبتنا المؤلف بأن يفي بوعوده تلك أنه يتوقع هناك بأن «هذه الدراسة هي من أولى الدراسات في علم الاجتماع الديني في العراق، والتي تختلف تمام الاختلاف عما كتب ويكتب في هذا الصدد».

ولكن ما هو حجم وفائه بهذه الوعود في دراسته الضخمة التي تجاوزت خمسمئة صفحة؟ وفي الواقع يبدو أن ذلك لم يمنح مساحة كافية داخل الدراسة التي طغى عليها طابع الوصف؛ حيث تحول التوصيف من مقدمة تمهد للجهد الدراسي التحليلي إلى موضوع استغرق فيه الكاتب طويلاً، ومن مدخل يعتمد على المسح الميداني إلى لون من التأريخ للظاهرة.

رغم أن دراسته تظل متميزة بأنها ولجت، عبر التحليل والاستنتاج، آفاقاً لم تقترب منها المحاولات الشبيهة، إلا أنه ولوج دون التوغل الكافي الذي يشبع الأسئلة السوسيولوجية الجادة إجابة. ولعل ثمة خطوطاً، أو ألواناً، من الممنوع حالت دون تشجيع الباحث على الخوض في جوانب أكثر خطورة وجدية، وهو ما يشف عنه قوله في مقدمة الكتاب بأن هذا العمل يمثل مخاطرة فكرية!

وحيث لا نود، بأي شكل من الأشكال، أن تبدو ملاحظتنا قاسية وعلى درجة عالية من الصرامة، فإننا ننوّه بالرصانة العلمية التي يتميز بها إبراهيم الحيدري وباستيعابه، بوصفه متابعاً جيداً، للمشهد الفكري في الغرب، وألمانيا بالتحديد، واطلاعه على أحدث المعطيات والمناهج في العلوم الإنسانية الحديثة، كاتجاهات

النقد الحديثة ومفكرين من طراز هابرماس وريث مدرسة فرانكفورت النقدية، ما يمنحه جاهزية أكبر وأدوات أكثر جدوى في التحليل والمقاربة، ما يجعل كتابه قراءة جديدة تكتشف المسكوت عنه في الظاهرة، الأمر الذي يجعلنا نترقب منه تخطياً للكثير من المقاربات التقليدية التي تلاحظ في أقسام عدة من الكتاب، وبالنحو الذي يقدم لنا مدخلاً سوسيولوجياً - أوسع مما لاحظنا - إلى استيعاب الخطاب الشيعي.

الهوامش:

(١) ابراهيم الحيدري، تراجيديا كربلاء، سوسيولوجيا الخطاب الشيعي (٥٢٠ صفحة)، بيروت: دار السّاقى، ط١، ١٩٩٩م.

